حب الرياسة في العلم، مرض الفلاسفة!

محاضرة ألقيت في مسجد "منهاج النبوة"

الخصوص، القاهرة

في الثاني من ذي الحجة، ١٤٤٥ من الهجرة.

أبو الفداء حسام بن مسعود

حفظه الله

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد، فقد قال جل شأنه في محكم التنزيل حاكيا أحوال بعض المنافقين ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) [البقرة : ١٣] هذه الآية الجليلة تكشف أحوال الفلاسفة والمتفلسفة والمفكرين والحداثيين والعقلانيين والتنويريين ومن شاكلهم، كما لا تكاد تراه في غيرها! فإن آفة الفيلسوف والمتفلسف، بارك الله فيكم، أنه يكره أن يؤمن كما آمن الناس! يكره أن يكون كغيره من الناس، بل يرى، من كبر ابتلاه الله به، أنه فوقهم جميعا وأنه أحق الخلق بأن يكون الناس تبعا له، لا أن يكون هو تابعا لبعضهم! لماذا؟ لأنه لمس في نفسه ذكاء ونبوغا، فاشتهى أن يكون رئيسا لهم، يصدر عنه الرأي فيتبعه الناس، ينزلون على قوله ورأيه، يرفعونه فوق آرائهم وظنونهم ولا يعارضونه بشيء! فهو ما غمط المؤمنين وسفه أحلامهم، إلا من حب الرياسة، وما تحت ذلك من الكبر والزهو بالنفس.

وحب الرياسة شهوة خفية، إن غفل العبد عن مراقبة نفسه، فقد لا يشعر بها حتى تبلغ منه مبلغها، نسأل الله العافية! وهو من الشرك الخفي الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: ما ذئبان جائعان أرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه! قلت والحرص على الشرف هو حرص العبد على أن يكون رئيسا في قومه، شريفا بينهم.

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: "ما رأيت زهداً في شيءٍ أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرئاسة تحامى عليها وعادى" وفي لفظ "ناطح نِطاح الكباش"! وصدق رحمه الله تعالى، ولعل من أكثر من يصدق فيهم هذا المعنى في أهل القبلة، الخوارج القعدة الحرورية، عند التدبر. فهم كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مع صَلاتِهِمْ، وصِيامَكُمْ مع صِيامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ! فما الذي أهلكهم؟ حب الدنيا وشهوة الرياسة والحرص عليها. قال الفضيل ابن عياض رحمه الله: "ما

من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير"! فهؤلاء لماذا يتنقصون ويبالغون في التنقص من أئمة المسلمين، يتخذون ذلك فاكهة مجالسهم؟ لأنهم يشتهي أحدهم أن يُقعَد هو في مجلس أحدهم، وأن يرفع إلى منزلته! يشتهي أن يكون هو المقدم في البلاد صاحب السلطان! فإذا كان هو قد اجتهد في التدين وبالغ في التسنن، فأكثر ذلك إنما يفعله ليرائي به الناس ويصرف وجوههم إليه، من حيث لا يشعر! كثير مما يكون من عبادة الخارجي التي تحقرون عبادتكم إليها، لا يكون فيه إخلاص على الحقيقة، مهما أوهم صاحبها نفسه بأنه مخلص! بل هو يريد الدنيا على التحقيق! فلابد، وهو يشتهي الرياسةَ، أن يصور إمامه الذي يحسده هذا، لنفسه وللناس، على أنه صاحب دين ناقص، يبالغ في ذلك، حتى إنك تراه يعدد معايب الأمير، يفتش عنها تفتيشا، حتى يبلغ أن يكفره بجمع أمور لا تبلغ أن تكفر المسلم مهما كثر وقوعه فيها وتكرر، تسمعه يقول: كيف يكون هذا مسلما موحدا، وهو يفعل كذا وكذا وكذا مما لا يتحقق مناط التكفير في شيء منه منفردا ولا مجتمعا، وقصارى نهمته أن يقول للناس بلسان الحال: أنا أحق بالسلطان منه!

قال أيوب السختياني رحمه الله: ما صدق عبدٌ قط فأحب الشهرة، وقال يحيى بن معاذ : لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة" أي حب الرياسة والحرص عليها.

قال الطيبي :"فإن النفس مائلة إلى حب الرئاسة , وطلب الترفع, فمن منعها سلم من هذه الآفة"

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ولا تنس ذنب ابليس وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما وأبو جهل وقومه واليهود."

قلت: وهذا مما يجب التنبيه عليه، أن رؤوس الملل الباطلة لا يصدهم عن قبول الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وعن الدخول في الإسلام، مهما تبين لهم وسمعوا من القرآن ما سمعوا، إلا شهوة الرياسة! أبو طالب عم النبي عليه السلام، شهد بأن الإسلام حق وعرف أنه أحسن الملل على الإطلاق، ومع هذا صده عن الدخول فيه كراهة أن يفقد منزلته ومكانته بين العرب! هؤلاء يكون حاضرا في نفوسهم وأذهانهم أنهم إنما أعرضوا عن الحق الجلي الواضح وتركوه حرصا على

الوجاهة والمنزلة في أقوامهم! ولكن أكثر الناس يكون عمل تلك الشهوة وذلك المحرك الباطن في نفوسهم خفيا لا ينتبهون إليه! غالبا ما يكون كذلك. يظن أحدهم، وتلبس عليه نفسه، أنه يرجح المصالح والمفاسد أو يتبع الأدلة العلمية في مواقفه، مع أن حقيقة الأمر أن الذي يحركه إنما هو حب الرياسة والتصدر في الناس. يتكلم الرجل في الرجل، وهو يظن أنه لله تعالى، وأنه صيانة لدين المسلمين، وجريان على قواعد الجرح والتعديل، فيستبيح عرضه وغيبته لأجل ذلك، مع أن حقيقة الأمر أنه حاقد عليه، يطمع فيما وضعه الله له من القبول بين الناس، أو يكره أن يراه وقد رفعه الناس فوقه أو قدموه عليه أو جعلوه ندا له أو نظيرا في العلم، أو نحو ذلك، فيتصيد له الزلة من أجل أن يسقطه بها، مما لو أنه تجرد من هواه ومن محرك حب الرياسة في نفسه، لأراه الله تعالى أنه ليس بموجب للجرح ولا للتنفير ولا للخوض في عرض ذاك الرجل الفاضل المتصدر لتعليم الناس الخير! فهي شهوة تقلب موازين العلم، تري صاحبها الحق باطلا والباطل حقا، من حيث لا يشعر ولا ينتبه، نسأل الله العافية.

قال ابن الجوزي: "ومن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدح بعضهم في بعض طلبا للتشفي ، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذب عن الشرع ، والله أعلم بالمقاصد ، ودليل خبث مقصد هؤلاء سكوتهم عمن أخذوا عنه ، وما كان القدماء هكذا" يعني دليل أنهم أصحاب هوى، لا يتبعون الدليل كما يزعمون، أنك تراهم يفرقون بين المتماثلات، فترى أحدهم يسكت على معظّم عنده ولا يطعن فيه بل ولا يبادر إليه بالنصيحة في السر، مع أنه يرى من حاله نفس ما يراه من هذا الذي طعن عليه وشنع عليه واتخذ عرضه غرضا مباحا في كل مناسبة، ومع أن مفسدة ترك هذا المعظم على ما هو عليه بلا تبيين قد تكون أعظم من مفسدة ترك ذاك الذي هجم عليه! فإذا سألته، قال لك: المصلحة الشرعية تقتضي الإمساك عن هذا المعظم عندي! أي مصلحة؟ ذريعة تصطنعها نفسه اصطناعا لتزين له مسلكه وترضيه به، وليقدمها بين أيدي المستنكرين، لا غير! بعض الناس يثقل على نفس الواحد منهم ويشق عليه جدا أن يظل في الظلّ لا يعرفه الناس، ولا يشيرون إليه، على سنوات قضاها في طلب العلم، فكيف يشتهر؟ كيف يعرف؟ كيف يظهر بينهم؟؟ يهجم على كبير معظم من العلماء وأهل الفضل بالطعن والتنقيص! يتسلق على كتفيه بذلك حتى ينتبه الناس إليه، وحتى يرتفع شأنه بينهم! يحدث

ضجيجا وصخبا حتى يراه الناس! وهذا من أذم الخصال، وهو أقرب إلى وقوع أحدنا فيه مما نظن، والله المستعان. منشأ الحدادية كان في مجالس علمائنا، بارك الله فيكم!

محمود الحداد، الذي سميت هذه البدعة باسمه، كان يحضر مجالس الشيخ ربيع! فهي بدعة نبتت في أناس كانوا يطلبون العلم عند العلماء، لكن فرطوا في مراقبة نفوسهم، كما هو الواجب عليهم، تركوا لها حبلها على غاربها، فقادتهم إلى ذلك الزيغ والضلال! قادتهم إلى الغلو في الجرح ومجاوزة الحد في باب الأسماء والأحكام، لا نصرة للدين ما تزين لهم نفوسهم أن يظنوا، ولكن طمعا في العلو والرياسة!! العلم له أوعية تؤخذ منه، بار الله فيكم! وأوعية العلم العلماء! ليس الكتب، لا! ولكن العلماء! الكتب لا تفتي! الكتب لا تقضي بين الناس! الكتب لا تجتهد في النوازل، ولا تنظر في أحوال الطلبة والمستفتين ومنازلهم وتقدر المصلحة والمفسدة فيما ينشر وما يضمر، في كل موطن بحسبه!! لأ! الكتب أدوات يستعين بها العلماء على تعليم الطلبة! لكن التربية الربانية وتوسعة المدارك العلمية وتنمية الملكة النقدية وتأسيس القواعد الكبرى والأصول الكلية في طالب العلم، كل هذا لا يؤخذ من الكتب، وإنما يؤخذ ممن ألفوا تلك الكتب! ولهذا قال النبي عليه السلام إن العلم لا يقبض انتزاعا ينزعه الله من صدور العلماء، وإنما يقبض بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، أفتوا فيهم بغير علم فضلوا وأضلوا، أو كما قال عليه السلام! أنظر، لم يقل يقبض العلم بمحو الكتب أو بزوال رسومها مثلا، لا لا، وإنما قال بقبض العلماء! يقبض العلماء، فإذا قبضوا وبقيت الكتب، لم ينتفع الناس بها كما ينتفعون من العلماء! بل يصدق فيهم أنهم يَضلون ويُضلون! فالعلماء هم أوعية العلم حقا، الذين تتابعت قرون الأمة على الأخذ عنهم! الأخذ عن أكابر العلماء، قرنا بعد قرن، لا الأخذ عن المطولات والمدونات! تجالس العالم فتتعلم من سمته وحركاته وسكناته ومواقفه وتنبيهاته وتصرفاته في طول المخالطة ما لا تصل إليه أبدا من كتاب صنفه وإن كان من المطولات! فالذي يصد الناس عن الوعاء، فهو يصدهم عما فيه، بارك الله فيكم! ومن فارق سبيل العلماء، فارق سبيل المؤمنين قطعا، في أيما زمان أو مكان! البركة والعلم مع أكابر العصر في كل عصر! لماذا كان من أصول أهل السنة الكبرى تعظيم الصحابة رضي الله عنهم، والإمساك عما شجر بينهم، وسلامة الصدر تجاههم جميعا، رضي الله عنهم وأرضاهم؟ لأنهم هم

حملة هذا الدين ونقلته في صدورهم! هم العلماء الذين يحتاج من بعدهم للأخذ عنهم حتى يعرفوا سبيل المؤمنين وطريقة المرسلين! حتى تبقى في الأرض وتحفظ! هم شهود الله في أرضه والموقعون عنه! وتلامذتهم كذلك من بعدهم! فإذا سقط شهود الدين سقط الدين! ولهذا لا ترى طائفة انشحنت كتبها بجميع أنواع الضلالات الفلسفية والكلامية والوثنية الشرقية والبطانية وغير ذلك حتى فاقت في مواضع كفر اليهود والنصارى مجتمعين، كما تراه في الرافضة! لأنهم أسقطوا الصحابة رضي الله عنهم، فلم يأخذوا عنهم كما أخذ التابعون ومن تبعهم! مع أنهم اجتهدوا في محاكاة كثير من روايات الصحابة رضي الله عنهم، فوضعوا نظائرها منسوبا إلى أئمة آل البيت المعظمين عندهم، كذبا وزورا، مضطرين لذلك، لأنهم أدركوا أنهم بإسقاط الصحابة رضي الله عنهم، لا يحصل لهم فقه ولا أحكام ولا تشريع!!

ولهذا قلنا إن الحدادية أو الأثرية الزائفة هؤلاء، فيهم شبه من الرافضة، فمن وجوه المشابهة أنهم يطعنون على علماء العصر وأئمته وأكابره جملة، فمن أين يأخذ الناس الدين إذا سقط هؤلاء؟ لا يبقى إلا الأغمار والأقزام الجهال الرويبضة، الذين تطاولوا برؤوسهم على كتب السلف، وهم لا يعقلون نصف ما يقرأون، وإذا بنا نرى ونسمع من الفتاوى والمذاهب والأقوال ما لم يقل به مسلم أبدا ولم يعرفه العلماء، ويقال مع ذلك إن هذا ما أجمع عليه السلف، وهذه طريقة السلف، والآثار تدل عليها، إلى آخر ذلك! وإذا بهم يشبهون الرافضة في المآل كما شابهوهم في الحال، فتراهم اليوم يتنازعون في مسائل قديمة محسومة عند أهل السنة حسما تاما منذ قرون متطاولة، يحدثون فيها أقوالا لم يقل بها أحد من السلف بل وأحيانا ولا من الخلف، ولا سمع بها عالم من علماء الملة قط، سنيا كان أو بدعيا! يخترعون أقوالا جديدة مغرقة في الشذوذ والغرابة، في مسائل كخلق القرآن واللفظية والتشبيه وتسلسل الحوادث وضوابط التكفير، وغير ذلك! وإذا بهم يختلفون في إسلام بعض الأئمة المجمع على إمامتهم، وصولا إلى البخاري بل والإمام أحمد نفسه، الذي كانوا يزعمون أنهم أحق الناس به!! إي والله وقع هذا ورأيناه! وإذا خاطبت أحدهم لم تستطع أن تبين له غلطه وضلاله، لأن ألفاظ لغة العلم التي يستعملها في كلامه معك لا علاقة لها باصطلاحات العلماء أصلا!! يقول لك هذا ظاهر الآثار، والأثر ظاهر جدا على ما أقول، وهو لا يدري ما الظاهر وما المؤول، بل إن سألته ما قسيم الظاهر في علوم اللغة وفي أصول الفقه قال لك الباطن، وربما لم يدر أصلا ما معنى كلمة "قسيم"!

يتكلم في الشروط وهو لا يدري ما الشرط عند العلماء، ويتكلم في ألفاظ العموم وهو لا يدري ما المراد بها عند العلماء تحقيقا وما قسيمها في الاصطلاح، ويتكلم في مصطلحات علماء الرجال بما لم يعرفه علماء الرجال ولا سمعوا به يوما من الدهر، وكذلك في كل علم من علوم الشريعة، وهكذا حتى صارت تلك الطائفة من أعجب ما يتعرض له طالب العلم من أنواع الفرق الضالة وأبعدها عن العلم الذي هم دخلاء عليه، والله المستعان! وهذا من خزي الله لهم بما كسبت أيديهم! لا يعامل رب العالمين صاحب الهوى في الدين إلا بنقيض قصده، سنة إلهية ماضية، لا تتخلف، شعر بها أحدهم أم لم يشعر! فمثل هذا ما السبيل لأن تخرجه مما هو فيه؟؟ رجل أخذ مصطلحات العلماء والأئمة فركب لها فهما من رأسه، وهو ماض في ذلك يؤسس عليه ما يؤسس فيمن يتابعونه، هذا كيف تخاطبه وتصلح له فهمه وترجعه إلى جادة العلماء؟؟ لا سبيل إلا أن يرحمه الله، ويهديه لأن ينسى كل ما سبق أن تعلمه عند أولئك النوكى السفهاء، ويرجع من جديد ليثني ركبه عند العلماء يطلب منهم العلم بعيدا عن هذا الجهل والسخف! ولا يكاد يقع هذا في هؤلاء إلا قليلا!

فكل هذا الضلال والجهل المبين، الذي ينسبونه إلى السلف زورا وعدوانا، بأي شيء يبدأ يا إخوة؟؟ يبدأ بالتنفير من العلماء، بارك الله فيكم، من علماء عصرنا هذا، ورثة طريقة السلف، وتزهيد الناس في مجالسهم، والله المستعان! ولا يكون التنفير من العلماء المشهود لهم بين الأقران بالعلم والفضل والاستقامة على السنة، إلا من مرضى النفوس، أصحاب ذلك المرض العضال الخفي الذي أحدثكم عنه الآن! شهوة الرياسة! هذا هو المبتدأ والأصل الذي يجب أن يفتش عنه كل طالب في نفسه، إن أراد السلامة من هذا المنقلب!

فطالب العلم يظل مد عمره سالكا بدينه ودعوته على صراط دقيق بين حفرتين عظيمتين، يوشك أن ينزلق في إحداهما إن لم يراقب نفسه، ويداوم على المراقبة، حفرة الغلو في الأفاضل، وحفرة الجفاء فيهم، والحسد والحقد عليهم! نسأل الله السلامة والمعافاة! فاضبط نفسك يا طالب العلم ووطنها على مراقبة الله في كل كلمة تتلفظ بها! وحاسب نفسك قبل أن تحاسب! فإن الموقف عسير، يوم تدنو الشمس من الرؤوس! نفسك يا عبد الله إن لم تسقها إلى الخير سوقا، ساقتك إلى الشر وإلى ما لا تحمد عقباه! وهي مائلة بطبعها إلى هذا الشر، يجذبها اجتذابا ما دام الدم يجري في عروق صاحبها، والأنفاس تتقلب في صدره! هكذا بلاؤنا بنفوسنا في هذه الحياة

الدنيا، وهي سنة الله الماضية في أرضه، صبرنا أم جزعنا، شكرنا أم كفرنا، أعاذنا الله وإياكم من الكفر والخذلان. فعلينا أن نتعلم كيف نراقب دوافعنا ونياتنا الباطنة فيما نقول وما ننشر وما نكتب، كما نتعلم الآية من كتاب الله! فالإخلاص من شروط قبول العمل، والتفريط في تعلم الشرط والمران عليه، تفريط في المشروط وتضييع له! أنا أنصحكم بهذا وأنا والله من أحرى الناس بهذه النصيحة، أذكر نفسي قبل أن أذكركم، ورب سامع أوعى من مبلغ!

والقصد أن شهوة الرياسة، بارك الله فيكم، ليست على صورة واحدة، فمن الناس من يقع في نفوسهم حب الرياسة في الحكم والإمامة والتسلط على الخلق بالأمر والنهي والقيادة والبطش والمنعة، وهذا كما مر لا يوجد في طائفة من طوائف أهل القبلة كما يوجد في الخوارج والرافضة. وهل صار الرافضة رافضة، إلا لأنهم كرهوا أن يتسلط عليهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؟ فشهوة الرياسة في السلطان والإمامة الكبرى، تبلغ ذروتها في أهل القبلة في هؤلاء. وهم فيها على مراتب، فهي في نفس من بلغ أن رفع السيف على إمامه، وهو يعلم أنه قد يموت دون ذلك، يشتهي أن يكون معدودا في جملة الأبطال المجاهدين فيما تصوره له نفسه ويصوره له أقرانه وجلساؤه، أهون وأخف مما تكون عليه في نفس الخارجي القعدي الذي يكفر ويحرض الناس على الخروج، لكن لا يجاهد بنفسه ولا يقدم نفسه لتلك الغاية! فهو من حرصه على الدنيا وجبنه، يخاف أن يقتله الإمام فيفوت عليه ما يشتهي! ماذا يكسب من الرياسة والسلطان لو أنه عرض نفسه لأن يقتله الإمام؟ لا شيء!

هذه المحركات الدافعة التي أحدثكم عنها الآن، بارك الله فيكم، وموازين المحبوبات والمكروهات التي تميل بالقلب إلى الباطل، فتريه إياه حقا، هي ما يعمل في نفس الإنسان المبتلى بتلك الشهوة، عملا باطنا خفيا، دون أن يشعر بأنه على حال ذميمة يخشى عليه بها من سوء المنقلب، بل يظن، أو تزين له نفسه أن يظن، أنه إنما يحركه الشرع والكتاب والسنة! وهذا أعظم ما فيها من الخطر، وانتبهوا! تكلم الأول فيقول لك قال الله وقال الرسول، وقال السلف، ويقول إن الأدلة الشرعية قد دلته على أن هذا الإمام يجب الخروج عليه وقتاله، وأنه إذا خرج ومات دون ذلك، فهو في أعلى مراتب الشهادة! وتكلم الثاني فيقول لك قال الله وقال الرسول، أيضا، وقال السلف، ويقول إن الأدلة الشرعية قد دلته على أنه لو صدر نفسه لمقاتلته فقتل ومات دون ذلك، فسيفقد المسلمون من يعلمهم الدين الحق والتوحيد الحق، فالناس أحوج

إلى تخلفه هو عن النفير مع من حرضهم، لينذرهم ويعملهم دينهم، منهم إلى أن يكون هو مع المقاتلين! كلا الرجلين، الخارج والقاعد، تزين له نفسه اعتقاد أن ما أخرج هذا وما أقعد ذاك، إنما هو الدليل الشرعي والنظر الشرعي الصحيح، مع أن حقيقة الأمر التي تخفى عليهما جميعا، أنما هو الهوى الذي يحركهما جميعا في بواطن نفسيهما، لا العلم ولا الدليل كما زعما! شهوة السلطان المخلوطة بحب الشهرة عند الأول، إذ يشتهي أن يُرفع ذكره في الناس فيقال: قاتل في سبيل الله ولم يخش في الله لومة لائم، وشهوة السلطان الممزوجة بشهوة الرياسة الدينية والعلمية عند الثاني، إذ يشتهي أن يقال إنه يجيش الجيوش في سبيل الله بجهاد الكلمة واللسان! نعم بعض هؤلاء قد يخفى عليه وجه الفساد والبطلان فيما يستدل به، فلا يكون منتبها إلى حقيقة محرك الهوى في نفسه، بل يظن أن هواه على وفق الشرع، ومن كان هواه على وفق الشرع فقد غنم! لكن إذا نبه وبين له، فهو إذن مبتلى إما بالإصرار على ابتاع ذلك الهوى الخفي أو بالإقلاع عن هذا الذي هو فيه، وهذا لا يوفق إليه إلا موفق!

فكما أن شهوة الرياسة تدفع أناسا في جهة طلب السلطان والإمارة والملك، فإنها تدفع آخرين في جهة طلب التقدم والتسلط في العلوم وفنون المعارف، لا سيما عندما تكون مادة تلك العلوم، ما يعتقد الإنسان أن به نجاته ونجاة الناس في الآخرة، وهي علوم الشريعة. وكل من لمس في نفسه ذكاء وحدة ذهن، وسرعة في تحصيل العلوم وفهمها، في أيما علم كان اختصاصه، فإنه لا محالة متعرض لتلك الشهوة، شعر بذلك أم لم يشعر، فإما أن يراقب نفسه فيتغلب عليها بتوفيق الله جل في علاه، وإما أن يغفل عنها فتبتلعه ابتلاعا! وهي شهوة أن يقيم نفسه في مقام شيخه، وشيخ شيخه من فوقه، وأن يجلس في أعلى مجالس العلم، يصبح عالما مقدما ينزل الناس كافة على كلامه. ولهذا يجب على طالب العلم ذي النبوغ والنباهة، الذي شهد له أقرانه بذلك، ووجد من يحمدونه به، أن يعالج نفسه في هذا الجانب دوما فوق ما يجب على غيره من الساعين في تحصيل العلوم! بل حتى وإن لم يجد من يثنون عليه، لكن أعجب هو بنفسه وذكائه، وقدرته على الفهم والتحصيل، فإنه يتعرض لتلك الفتنة أيضا لا محالة، ويجب عليه مثل ذلك! فإن لم يعالج نفسه ويراقبها فإن هذه الشهوة قد تعصف به في مستهل الطلب، بل وتفتك به فتكا من حيث لا يشعر، سلمنا الله وإياكم! يرى نفسه تحدثه بأن العلم سهل، وبأنه قادر على ضبطه وبناء بعضه على بعض،

فيما يراه لنفسه، وأنه إذا قرأ الكتب استقلالا برأسه، فهمها ولم يتعذر عليه الفهم، واستطاع أن يربط بعضها ببعض، ويستنبط منها إذا أراد! فما حاجته إذن إلى شيخ يطيل مجالسته ويصبر نفسه على ذلك لسنوات طويلة حتى يجلس نفسه مجالس العلماء؟ لا يرى أنه يحتاج إلى ذلك! وإذا به يستخرج من كتب العلماء ما يجزم طلبتهم وورثة علومهم بأنهم ما أرادوه أبدا، يؤسس على ذلك ما يمليه عليه عقله وهواه، ثم يقول بلسان الحال، وأحيانا بالمقال: لا فضل لهؤلاء العلماء علي! بل أنا عندي علمهم كله! أو كما قال من قريب، سفيه من السفهاء الذين وقع لهم هذا:
النووي ما النووي؟ علمه كله قرأناه!! علمه له قرأته؟؟ هو كاذب في هذا قطعا، إذا كان يقصد كتبه المنتشرة بين الناس، لكن من جهله وحماقته أنه يظن أن علم العالم هو ما حوته كتبه وتصانيفه وفتاواه المنشورة وحسب، بحيث إذا قرأت جميع كتبه، استغنيت عن مجالسته أو عن سؤال تلامذته ومن ورث عنهم! فهو لا يعلم أن من علم العالم ما ورثه عنه طلبته الذين طالت مجالستهم له، وخبروا أحواله وعباراته ومصطلحاته وما يريده من فتاواه وتقريراته، من غير أن يكون مدونا في شيء من كتبه، وقد يكون مفتاحا لبعض ما في كتبه، بل قد يكون أهم من كثير مما فيها أحيانا!

فمن الناس من يحب الرياسة على الخلق في العلوم وفنونها، يشتهي أن يكون هو المقدم المنزول على كلامه في صناعة معينة من صناعات العلم، لا يقدمون على كلامه فيها شيئا. مع أن السلف كانوا يفرون من التصدر في المجالس أشد ما يكون الفرار، يقول أحدهم لأن أكون ذنبا في حق أعرفه أحب إلي من أكون رأسا في باطل لا أشعر ببطلانه! فالسلامة في الدين لا يعدلها شيء!

وبحسب متعلق تلك الشهوة في قلب المتلبس بها، يكون ما يترتب عليها عنده من البدع والضلالات والانحرافات. وأعني بالمتعلق هنا، المجتمع المباشر الذي يشتهي هذا الإنسان أن يكون مقدما فيه، متبوعا مسموع الكلمة بينهم، فتحركه أهواء قلبه في طلب ما يرجو أن يكون سببا في أن يرفعوه فيما بينهم! خذ مثلا، هذا الشاب المتعالم المنتفخ "محمد عبد الواحد الأزهري"! الرجل كان في مستهل الطلب متتلمذا على مشايخ الحزبيين السرورية، وكان يلمس في نفسه ذكاء ونبوغا، ويرى أنه إذا قرأ كتب هؤلاء فهمها واستوعبها من غير يحتاج إلى سؤال أحد! فقرأها وجردها جردا، ثم نظر فقال: أنا الآن في منزلة كبرائهم ورؤوسهم! قرأت علمهم كله! فلا ينبغي أن يُقدموا علي! فلما رأى أنهم لا يقدمونه كما يشتهي، هجم على كتب ابن عثيمين

ودروسه وشروحاته وابن باز والألباني، وجرد ذلك أيضا، ليقول للناس: أنا قرأت ما لم تقرؤوا، وعلمت ما لم تعلموا، فلا تجادلوني فيما أرى! فلما رآهم لا يقدمونه كما يشتهي أيضا، قال سأرفع السقف إذن، وأجرد جميع كتب ابن تيمية! فانطلق وقرأ منها ما قرأ، ولا أدري هل أتمها أم لا، لا أظن أنه أتمها، لكنه قطع فيها شوطا كبيرا، ومع هذا، ومع أنه كان يستضاف في الفضائيات ويعقد المجالس والمحاضرات وهذه الأمور، على ميل عنده للفقه خاصة وعلوم الآلة، لأنه كان يشعر فيها بذكائه كما لا يشعر في غيرها على ما يبدو، مع هذا ظل لا يرى نفسه مقدما مرفوعا إلى منازل العلماء الكبار كما كان يشتهي! ولا أدري هل تحول وهو طالب في الأزهر أم بعدما أتم الدراسة هنا، لكنه فتن بالدكتور علي جمعة فتنة كبيرة، أعجبه كلام الرجل جدا، وحدثته نفسه المستكبرة بأن "السلفيين" الذين كان يزعم نفسه رأسا من رؤوسهم، يناطح علماءهم، هؤلاء أكبرهم لا يعلم من تلك العلوم شيئا ذا بال! وأنهم كلهم على طريقة الخوارج في التفقه، ولا يعرفون كيف يضبطون لأنفسهم مذهبا مطردا يلتزمونه في الفتوى، إلى آخر ذلك مما زعم! وفي تلك الفترة، وقع نزاع بينه وبين بعض أقرانه من الحزبية المنتسبين إلى السلفية، تحدث هو عن تفصيله في بعض مقاطعه! فكان على أثر ذلك كله أن استحكمت شهوة الرياسة في نفسه فأدارته إلى وجهة أخرى! وهي وجهة تنقيص السلفيين كافة، وكشف جهلهم وفساد طريقتهم في العلم، من أعلاهم إلى أدناهم! فأخذ يتقرب إلى أكابر الأشاعرة كعلي جمعة وغيره، ويلج إلى بضاعة الكلام في العقيدة، من باب أغلاط متأخري الحنابلة فيها، كأبي يعلى الفراء وأبي الحسن الزاغوني وغيرهما، فهون من نزاع الناس في هذه المسائل، ومن مخالفات الأشاعرة في الأسماء والصفات، من جهة تعظيم العلم الذي كان عليه أصحاب تلك المخالفات، كما هي طريقة الأشاعرة أنفسهم في الانتصار لبدعهم، ثم هو الآن فرح جدا، سعيد بالمجلس الذي أجلس فيه نفسه، فحمده عليه أكابر الخلفيين من الأشاعرة وغيرهم، وهو مجلس تبيين "جهل السلفيين" بزعمه، انتصارا للتراث ولأئمة العلم! وبهذا تحقق له أخيرا ما كان يتمنى! فمسيرة هذا الرجل يا إخوان، شاهدة عليه من أول يوم، بأنه ما طلب العلم لله خالصا يوما من الدهر! بل كان ولم يزل يرى نفسه أذكى وأعلم وأنبغ بكثير من تلك المنزلة التي أنزله الناس إياها! واليوم أخزاه الله تعالى، جزاء وفاقا، بأن أوقعه في بدع الصوفية وخرافاتهم التي كان فيما مضى يحذر الناس منها أشد التحذير، ويقول في الصفات الإلهية بكلام الجهمية بعد أن كان على طريقة أحمد بن

حنبل التي يزعم أنه أعلم الناس بها! يلقب نفسه في كل مناسبة بالحنبلي، مع أنه لو بعث الإمام أحمد اليوم رحمه الله، ورآه وسمع كثيرا من كلامه، لبالغ في ذمه والتنفير منه! فاعتبروا يا طلبة العلم!

أنا ذكرت لكم حال هذا الرجل خاصة، مع أن هذه الآفة ظاهرة في كل من رددت عليهم على قناة إقناع، وقد رددت عليه في خمس محاضرات طويلة إن لم أكن واهما، لأن في قصته بيان لمبلغ التسلط الذي يمكن أن تبلغه تلك الشهوة من نفس أحدهم من حيث لا يشعر. فقد مر تحوله على مراحل تدلك إذا تدبرت فيها على أن سبب ذلك كله مرض باطن في نفسه، هو في أتم الغفلة عنه! كان ولم يزل! ففي أول أمره كما ذكرت لكم، كان يرى نفسه أذكى من أقرانه، لكن كان لا يجرؤ على الاعتراض على من يبدعون المتكلمين والأشاعرة ويذمون طريقتهم، لأنه إذن تنفر منه الطائفة التي يريد أن يحملهم على اتباعه أو على تقديمه فيما بينهم! فقد كانت الطائفة التي تعلقت بها شهوة الرياسة عنده حينئذ، وأراد أن يتصدر فيهم، هم أقرانه من الحزبية الخوارج المنتسبين إلى السلف! فكان ينتصر لما تلقاه من عقيدة أهل السنة في الأسماء والصفات في مجالس هؤلاء، كما هو ديدنهم. ثم لما وقع ما وقع من عراك بينه وبين بعض هؤلاء، مالت به نفسه إلى تسفيه عقول تلك الطائفة كلها من أولها إلى آخرها، ليظهر تفوقه عليهم، أحبوا أو كرهوا، وإذن تصبح الطائفة التي يرأسها هم "التائبون من السلفية" بدلا من السلفيين أنفسهم! فبدأ حينئذ بنقد فقه الخوارج عندهم، وخبطهم العشواء في الفقه المذهبي وفي الفتوى! وهو ما أصاب في كثير منه. لكنه يريد الرياسة الآن بين أيدي أناس يخالفون "الوهابية" في العقيدة! وهو يرى في كتب متأخري الحنابلة ما يخالف تقريرات هؤلاء الوهابية وتقريرات ابن تيمية! فاتخذ من ذلك الباب مدخلا لتسفيه أحلام خصومه في العقيدة أيضا، ثم لم يزل يتدرج حتى وصل إلى ما ترونه الآن، مما يرجو به أن يكون مقدما محترما عند علي جمعة وغيره من مشايخ الأزهر الذين أبهرته تقريراتهم في علوم الآلة، واشتهى أن يظهر قدرته على التقدم والتصدر فيها بين أهلها!

فالرياسة وحب التقدم والتصدر في الناس ان ولم يزل هو مطلبه وعنوان مسيرته في كل مرحلة من مراحل طلبه للعلم، والله المستعان. وبسبب حب الرياسة لا غيرها، انخلع مما كان عليه من موافقة السلف إلى موافقة الخلف والفلاسفة ودراويش الصوفية، وهو يرى أنه صار أعقل الناس! ففي حالته عبرة يجب أن يعتبر بها طلبة

العلم، وأن ينتبهوا إلى أحوال خلطائهم ومن يجالسونهم! فإن الصاحب ساحب كما يقال! والمرء يكره أن يصدم خليله في أمر الدين الذي هو أعظم ما يعظمه كل إنسان! بل يحب أن يوافقه ويحرص على رضاه ومودته، ويحب مجالسته ومؤانسته، فينطبع برأيه في تلك المسائل العظيمة، أو يتساهل فيها بعد أن كان صارما لا يلين، ولو بعد حين!

بعض الناس يسمع هذا الكلام فيعترض ويقول: أنت تدخل في نية الرجل وسريرته، وهذا عدوان لا يرضاه الله تعالى، ويعرضك لغضبه سبحانه! وهذا والله جهل عظيم! لأننا معاشر أهل السنة نؤمن بأن الظاهر والباطن متلازمان البتة، فما يكون في الباطن قد يكشفه الظاهر ويفضحه في كثير من الأحيان بل في أكثرها، كما في قوله تعالى: ((وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)) [محمد : ٣٠]! فلحن القول دال على ما في القلب وكاشف له! الدخول في النيات والسرائر يا إخوان إنما يكون عندما يرمي أحدنا باطن أخيه بلا بينة ولا برهان ولا قرينة، يتهم نيته من غير أن يستند في ذلك إلى شيء البتة! كقول بعض ناقدينا عندما يعلقون على تحذيرنا من بعض المعظمين عندهم "أنتم تحسدونهم لنجاحهم ولكثرة من اهتدوا على أيديهم"! فهذا بأي شيء يستدل عليه صاحبه؟؟ بمجرد أني نقدت هذا الرجل وعلقت على كلامه وبينت ما أزعمه غلطا وانحرافا في كلامه!! نقدت من أعظمه؟؟ إذن أنت تحسده وتحقد عليه!! هذا هو الدخول في النيات، بارك الله فيكم! والتفريق بين الظاهر والباطن مطلقا هذا من طريقة مرجئة أهل الكلام لا من طريقة أهل الحديث! فهم من يقولون لا يضر المسلم عمل يعمله، مما ظاهره الشرك، ما لم يصرح باعتقاد الشرك!! حتى لو رأيناه يسجد لصنم، سلمكم الله، أو يذبح له، فلا نقول إنه تلبس بالكفر، لأنه مسلم، يقول لا إله إلا الله! لو قال هذا الذي سجدت له إله مع الله، فحينئذ يكفر، وإلا فلا!! وهذا محض إرجاء، راجع لأصلين عندهم، كما بينت ذلك في تعليقي على بعض كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، الأصل الأول هو تعريف الإيمان عند المتكلمين، والثاني هو غلو الصوفية في الصالحين!

ربكم سبحانه وتعالى عزيز، لا يوفِّق في هذا العلم الشريف من دخل إلى نفسه مثقال حبة خردل من كبر أو عجب أو زهو بالنفس!! لا يوفقه والله، بل هو فاضحه ولو

بعد حين! مهما عظم وعلا كعبه وكثر تابعوه، فهو فاضحه ومخزيه لا محالة، ولو أثنى عليه سائر أهل الأرض!

وكما دخل حب الرياسة على هذا الرجل فجنح به إلى تلك الوجهة، وجهة متكلمي الحنابلة المتأخرين، ومتمشعرتهم ومتصوفتهم، فقد جنح بغيره إلى وجهة أخرى، بالنظر إلى متعلق تلك الرياسة المرجوة عنده. بعض الناس لا يريد الرياسة العلمية في محافل العلماء الأكاديميين والفقهاء المعممين كالأزاهرة وغيرهم، كما اشتهاه عبد الواحد الحنبلي، وإنما يشتهيها في صفوف الخوارج! يشتهي أن يظهر أنه أعلم الناس بطريقة السلف وكلام السلف، وأنه لا يتهيب من تكفير العلماء الذين لم يكفرهم غيره، إذ رأى بزعمه أن كلام السلف يقتضي تكفيرهم!

وقد يدخل حب الرياسة على بعض الأفاضل من طلبة العلم السلفيين، من حيث لا ينتبهون، من جهة علوم الآلة أيضا. لا أقول إن ذلك يبلغ عندهم ما بلغه عند عبد الواحد الحنبلي، ولكن هذا كما بينا داء خفي، يكون في الناس على تفاوت في مقداره كما يتفاوت في متعلقه. بعض طلبة العلم السلفيين تتلمذوا في علوم الآلة على بعض الأشاعرة ممن يتقنونها في الأزهر وغيره، فظهر فيهم نوع تطاول واستعلاء لا على العلماء ولكن على بعض أقرانهم من طلبة العلم الأفاضل الذين لم يتوسعوا في تلك العلوم كتوسعهم! وكأنما يظن أن ما حجز هؤلاء إلا القصور عن الملكة المؤهلة للاجتهاد والممكنة من دقة النظر، ولو كانت فيهم تلك الملكة لصبروا على تلك العلوم وعلى مطولاتها كما صبروا هم، وإذن لخرجوا من مرتبة العوام وأشباههم، إلى مرتبة طلبة العلم والعلماء! وهذا من أعراض ذاك المرض الخفي، بارك الله فيكم. فكل من ضبط طريقة أهل السنة في العلم والعمل، يعلم أنهم أقل الناس تكلفا وتنطعا، مع كونهم بفضل الله تعالى لا يفرطون في العلم الواجب على الكفاية أو على التعيين! وكل من عرف طريقة أهل السنة وكلام أئمتهم كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آفة علم الكلام والطريقة اليونانية في تشقيق الكلام وتكثير المسائل النظرية والتكلف والتنطع فيها وتوليد الحدود التي قد يقع النزاع فيها على عشرين أو ثلاثين حدا في المسألة الواضحة التي لا تحتاج إلى تعريف أصلا، إلى غير ذلك مما يعرفه من قرأ في تلك المطولات وخبر ما فيها! فمع أنك يا طالب العلم قد تجد في كثير من تلك المباحث ما يحفز ذهنك ويسيل لعابك ويحرك ملكة الفكر والتأمل

عندك، مما قد تعده رياضة وكذا، إلا أن هذا لا يخرجها من أن تكون تكلفا وتنطعا، يرى بعض علمائنا الخير والمصلحة راجحة في تزهيد الطلبة فيه، وتوجيههم إلى ما هو أنفع لهم وللمسلمين! لا أقول يزهدونهم في المطولات، فإن هذا غير محمود قطعا، وإنما يزهدونهم في مباحث كثيرة مما في تلك المطولات، وقد يوجزوها لهم في الشرح بما يغني عن مطالعتها. على عكس المخالفين لأهل السنة، الذين درجوا على التنطع والتحشية على التنطع بمزيد من التعمق والتكلف والإفراط والإغراق فيما لا طائل تحته ولا عمل ينبني عليه، حتى إنك لا تكاد تمتاز عندك المسألة العظيمة الجليلة في العلم عما دونها، وهذا من أذم ما تقع فيه العلوم، على أثر الانطباع بطريقة الفلاسفة في النظر والبحث والجدال، التي درج عليها المتكلمون وأخذوها عنهم. فالمتقلل من ذلك من طلبة العلم لا يعاب، بارك الله فيكم، ولا يتهم بأنه فرط فيما يقصر به عن العلم الواجب على المتفقه والمجتهد! هذا إن كان أصلا ممن يندب لتلك النهاية في العلم، وإلا فليس كل من طلب العلم ولا كل من أجازه العلماء للتصدر بتعليمه في مجالس العلم يكون مطالبا ببلوغ منازل المجتهدين في الشريعة وعلومها، المدققين في دقائق كل فن! هذا لا يكاد يوجد أصلا! ويكذب من يزعمه منكم لهؤلاء المشايخ الكبار الذين دخل عليكم الانبهار بعلومهم وبفهمهم لتلك المطولات. والتفريق فيما يحتاج إليه كل طالب وما الذي يناسب قدراته وملكاته الذهنية بخصوصه، ومن الذي يُندب لبلوغ منازل المجتهدين في المذهب، ومن ثم يصدر للفتوى والقضاء ونحو ذلك، ومن الذي لا ينبغي له أن يزيد على تدريس الكتب للطلبة المبتدئين والمتوسطين ومن شاكلهم، بما حفظ وأتقن من العلم ومن الكتب التي أجيز لشرحها، كل هذا مرجعه إلى العلماء بارك الله فيكم. فترفقوا بإخوانكم واتقوا الله فيهم وفي أنفسكم، واحذروا من أن تغتروا بعقولكم وبذكائكم، فإن هذا هو داء الفلاسفة ومرضهم، الذي بلغ بهم أن طمعوا في النبوة والرسالة، وعلموا على رفع أنفسهم فوق الأنبياء والمرسلين!

نهاية هذا المرض الخفي يا إخوة، مرض حب الرياسة في العلوم والمعارف والمعقولات، هو كبر الفلاسفة! ولهذا سميته بمرض الفلاسفة. لأن الفلاسفة تعاظمت عقولهم في أعين أنفسهم إلى الحد الذي اشتهوا عنده أن يجعلوا آراءهم وقواعدهم أساسا لجميع معارف البشر وعلومهم بلا استثناء، كل ما يصح أن يقال فيه معرفة، فإنما يصح فيه ذلك لسبب هم من يقرره! بل يريدون أن يون نظرهم أساسا لعمل

العقل البشري نفسه عند كل عاقل! لا يُستحق اسم العقل في إنسان ما إلا بالتزام ما يقررون! هكذا! طموح الفيلسوف في الرياسة العلمية والمعرفية في الناس، لا سقف له! شهوته في هذا ليس فقط أن يكون كالنبي، يتبعه الناس تمام الاتباع، بل يريد أن يكون فوق النبي والرسول! أليس يزعم كل رسول أنه واسطة بين رب بالغيب وبين الناس، ينقل إليهم كلامه وتكليفه وأمره ونهيه؟ بلى! هذه وظيفة الرسول! فإذا دخل الفيلسوف برأيه ونظره في سبب تسليم الناس للرسول، وتصديقهم بوجود من أرسله، وتسليمهم بمعقولية ما يزعم أن الرب قد أوحى به إليه، فإنه بذلك يكون قد تسلط على الخلق فوق تسلط الرسول، وأصبح كلامه وتنظيره، هو المرجع الأعلى الذي يعرض عليه ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبل، وإلا كذب ولم يتبع! هذا ما بدعه فلاسفة اليونان في نظرهم الذي سموه بنظرية الوجود! يعني يتكلف الفيلسوف أن يضع نظرية يحكم بها على كل ما يوجد في الأعيان، بالقوة أو بالفعل، فيعرف الناس من طريقها، أحكام العقل على الموجودات في الخارج، أيا ما كانت حقيقتها! يقول مثلا، العقل لا يفرق ولا يميز بين الموجودات في الأعيان، يعني خارج الذهن، إلا بأن تكون تلك الموجودات مركبة من كذا وكذا. أيا كان! جوهر وعرض، هيولا وصورة، جسم وصورة، شيء من هذا القبيل! نظرية تكييف وتحقيق للموجودات في الأعيان بإطلاق، وما به تستحق معاني الصفات التي ينسبها العقل البشري إليها، سواء على سبيل الجواز أو الوجوب أو الامتناع. فإذا سلمت له بنظرية هذا موضوعها، وهذه فيما أزعم أعظم جناية على العقل البشري في التاريخ بعد الإشرك بالله تعالى، إذا سلمت له بهذه النظرية، فقد سلطته على معرفتك بكل ما يوجد خارج ذهنك، تسليطا مبرما! تاما! وإذن يطالبك بالدليل النظري على أن وجود الرب الذي يزعم الرسول الذي تؤمن به أنه أرسله، متفق مع شرطه ونظريته. ولا شك أنه لن يتفق في الحقيقة، لأن الرجل أطلق وقال لا يوجد في الأعيان خارج الذهن موجود إلا وحقيقته أنه كذا مركب في كذا! لا يستثني من ذلك شيئا! الجوهر والعرض هذا الذي تشبع به المتكلمون من أهل القبلة، هو تكييف وتحقيق أرسطو المخترع لكل ما في الأعيان، وليس لموجودات العالم المخلوق بخصوصها! الشيء لا تقوم به صفة ما، أي صفة، مما يعقله الناس، ويميزونه به عن غيره من الأشياء الموجودة خارج الذهن، إلا أن تكون أعراضا مركبة في أجسام أو جواهر! عرفوا الجواهر كما شئتم أن تعرفوها، وسيحوا في حدود العرض ما بدا لكم أن تفعلوا، المهم أن تقبلوا فكرة التركيب هذه! وهي نفسها فكرة حلول الحوادث! جميع الموجودات في الأعيان يجب

أن تركب وتحل بها الحوادث حتى تصح لها تلك المعاني التي بها توصف بالوجود في الأعيان أساسا!! فأعظم جناية ارتكبها المتكلمون على عقول المسلمين وأديانهم، أنهم ابتلعوا تلك النظرية من أصحابها، من الأساس، وخضعوا لشرط صاحبها في التأسيس عليها! فهي، مع نظرية المنطق المشائي، التي هي أقدم صورة لما يقال له اليوم نظرية المعرفة، هي التي تقرر ما به يكون المعقول معقولا أصلا، بهذا الإطلاق، يتم بها للفيلسوف سلطانه الباطل المطلق على عقول الخلق وجميع معارفهم! وليس فوق ذلك رياسة أو سلطان لمخلوق على مخلوق في العقل والعلم أصلا! أنت لست تتبعه في معرفتك بما تنجو به في الآخرة كأتباع المرسلين، لا، بل تتبعه فيما به تكون إنسانا عاقلا أصلا، قادرا على قبول دعوى الرسول أو ردها إذا سمعتها! لهذا كانوا يقولون لأرسطو المعلم الأول! لأنه يعلمهم أول ما يبدؤون به كل تعقل وكل نظر! ولهذا ما كان من عجب أن يجمع السلف على ذم طريقة الكلام وعلم الكلام، لأنهم، أي المتكلمين، سلموا للفيلسوف بصحة شرطه الباطل في طريق المعرفة بوجود الباري وبما يجوز له وما يمتنع من الصفات، وراحوا يؤسسون براهينهم على نظرية العرض الأرسطية هذه، فوقعوا من ذلك فيما تعلمون! فإذا كان الفيلسوف قد اشتهى أن يتسلط على عقول الخلق وعلى مبدأ النظر والفكر والمعرفة عند كل إنسان، فالمتكلمون سلطوا عقولهم وعقول الفلاسفة كذلك على عقائد المسلمين وعلى ما جاءت به الرسل، من نفس الجهة وبنفس الطريقة، من حيث زعموا أنهم ينتصرون للدين وللشريعة! ولنفس الهوى: حب الرياسة على عقول الخلق ومعارفهم، ولكن باسم الشريعة وثوابت الدين! أعجبتهم جدا فكرة أن يكون المتكلم هو من يجلس ذلك المجلس الأرفع الذي جلسه أرسطو وأمثاله، ولكن بالنسبة إلى علوم المسلمين! فتصبح جميع علوم الشريعة بداية من المعرفة بوجود الباري نفسه، فروعا على أصوله وقواعده! ولهذا كان علم الكلام هو علم التوحيد عندهم وهو أسمى العلوم الشرعية على الإطلاق، ولا عجب، فهو أصل جميع المعارف الدينية عندهم. أصول جميع العلوم الشرعية هي فروع على أصول ذلك العلم، كما حرره الغزالي في المستصفى! وجميع المشتغلين بالعلوم الشرعية مضطرون لتقليد المتكلم فيما لا يفهمونه أو يضبطون تصوره من براهين التكلمين ونزاعاتهم فيما بينهم، لأنهم كلهم يفرعون على بضاعته، وهو ما به صار المتكلم يقال له السيد المتكلم، والسادة المتكلمون، لا سيما عند الأشاعرة.

ولهذا لم يجدوا إلا أن يتأولوا كلام السلف في ذم علم الكلام وإجماعهم المشهور عليه، على أن المقصود إنما هو أقوال المعتزلة الذين كفروهم، وكلامهم الذي قرروه في خلق القرآن، وليس علم الكلام بعموم! كيف يحرّمون ما لا يعرف الرجل ربه عندهم إلا من طريقه، ولا يعرف ما يجوز له وما يمتنع من المعاني إلا به؟؟ مع أن السلف أنفسهم ما عرفوا ربهم من ذلك الطريق ولا شعروا بها أصلا، ولا كانوا يتصورونها، فضلا عن أن يستنبطوا منها مفردات اعتقادهم في الإلهيات! وهذا معلوم لا يخفى، ولا يماري فيه أحد من أهل الكلام! لكن قد تعلم القوم من الفلاسفة أن اسم العقل والعلم لا يثبتان لإنسان أصلا، من مبدأ الأمر، حتى يكون متحصلا على ذلك النظر اليوناني، وعلى أدوات أصحابه في تفريع المعارف عليه!

فكيف ينال المتكلم الرياسة المرجوة والعلو المنشود في أروقة الفلاسفة حيث يحب أن يُعرف وأن يشار إليه، إن لم يُظهر قدرته على استعمال تلك البضاعة في إثبات وجود من صنعه؟ لا يحصل له ذلك. المتكلمون يا إخوان، في أصل نشأتهم، كانوا قوما مفتونين بالفلاسفة! فكرهوا أشد ما تكون الكراهة أن يتهمهم الفلاسفة بأن إيمانهم كإيمان العامة، إيمان قوم جهال خفاف العقول، لا يعرفون شيئا عن الجواهر والأعراض والأجسام وهذه الأشياء، ولا يعلمون كيف يثبتون وجود ربهم في ضوئها! فكيف تخلصوا من تلك التهمة الشنيعة؟؟ بأن يظهروا تحققهم بالعقل اليوناني وبالطريقة المرضية فيه لإثبات المغيبات والكلام في الإلهيات! ولو أن المتكلمين الأوائل سلمت نفوسهم من الأهواء، ومن شهوة حب الرياسة خاصة، لبصرهم الله تعالى بفساد ذلك الشرط اليوناني السفسطائي في الإثبات، ولألهمهم نقض تلك النظرية اليونانية الفاسدة في تكييف وتحقيق الموجودات في الأعيان من حيث هي موجودة في الأعيان! ولانتبهوا إلى أن تحويلهم العالم الذي تصفه النظرية، وهو موضوعها، من أن يكون هو كل ما في الأعيان كما عند أرسطو إلى أن يكون هو كل ما سوى الله تعالى كما في براهينهم، تحكم فاسد، ترتب عليه خروج رب العالمين من أن يكون من جملة الموجودات في الأعيان، التي لا تقوم بها صفاتها إلا بأن تكون على التركيب والتكييف العرضي الذي تزعمه النظرية، إلى أن يكون موجودا ذهنيا صرفا موصوفا بالممتنعات، لا قيام له في الخارج، كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله! لكنهم كانوا يعظمون فلاسفة اليونان ويعظمون نظرياتهم تلك أشد ما يكون التعظيم، ويشتهون أن يكون لهم الرياسة بين أتباعهم! فاختاروا أن يؤسسوا

عليها اعتقادهم بدلا من أن ينقضوها، وكان على أثر ذلك من الإفساد في عقائد المسلمين ما كان! ولم يكتفوا بذلك، بل نفوا أصل الإيمان عمن لم يتكلف ذلك النظر الفلسفي البدعي الذي تكلفوه هم، لأنه إذن لا تثبت المعرفة بوجود الصانع عنده! ومن لا يعرف، لا يؤمن! وهي مسألة حكم إيمان المقلد!

والواقع أن مبتدعي الطريقة الكلامية ليسوا هم أكثر أهل القبلة تلبسا بهذه الآفة، أعني مرض الفلاسفة، شهوة الرياسة والتسلط في العلوم وما يتعلق بها، لأنه وإن كان المتكلمون قد تفلسفوا وتكلفوا تلك النظريات التي خاضوا فيها، باسم إثبات صحة الدين والانتصار للشريعة، وهم يزعمون في ذلك كله التقيد بثوابت الشريعة، وهو ما حقيقته عند الأشاعرة الفرار مما به كفر السلف وأئمة أهل الحديث غلاة الجهمية والمعتزلة، فقد وجد في المنتسبين إلى الإسلام، من تلبسوا بنفس الطريقة اليونانية هذه، ولكن دون تقيد بشرط ولا قيد إلا إثبات صانع ما لهذا العالم! وهؤلاء من كان يقال لهم الفلاسفة الإسلاميون! فقد كان هؤلاء أكثر حرصا على استرضاء الفلاسفة المدرسيين في عصرهم، منهم على استرضاء علماء الملة التي ينتسبون إليها! لم يطمعوا في الرياسة بين الفلاسفة وبين علماء الملة في نفس الوقت كما تطلع إليه مبتدعو الطريقة الكلامية، وإنما توجه طمعهم إلى الفلاسفة خاصة! ثم لما دخلوا في جدال مع أقرانهم من الفلاسفة في وجود الصانع، اضطروا إلى إثباته، فأثبتوه موجودا على شرط الإطلاق! يعني هو الوجود الواجب من حيث هو حقيقة كلية تقوم في الأذهان، وليس أنه موجود واجب معين يمتاز عن غيره من الموجودات! فقد كانوا أفقه بأصول أرسطو من المتكلمين، وكانوا يعلمون أنها تمنع من وجود موجود يوصف بشيء من الصفات في الأعيان إلا بأن يكون على الحقيقة والكيفية التي تفرضها النظرية! فالتزموا بألا يكون الباري الذي يثبتونه قائما في الأعيان أصلا، وإنما هو حقيقة كلية موجودة على كليتها فيما يشبه عالم المثل عند أفلاطون! أي كما يوجد العدد اثنان، مثلا، أو كما توجد الإنسانية والشجرية والطيرية وما شاكل ذلك من معان كلية! وهو ما جهد شيخ الإسلام رحمه الله في إبطاله في كتبه، فبين أن الوجود إما أن يقوم في الأعيان وإما أن يكون قائما في الأذهان، وإما فيهما معا، ولا قسم رابع لتلك القسمة! والإطلاقات الكلية إنما توجد في الأذهان، ولا توجد في الأعيان إلا الأفراد التي تنطلق عليها تلك المعاني الكلية! فمن ادعى أن الصانع ليس قائما في الأعيان، فقد نفى وجوده الذي يؤمن به المسلمون وأهل الكتاب وغيرهم

ممن يثبتونه في دينهم، وصيره مجرد صورة ذهنية تجريدية مطبوعة في وهم الفيلسوف، لا توصف بشيء من صفات الموجودات المتعينة خارج الذهن، ولا يجوز لها أن تتصف! هؤلاء الفلاسفة كانوا يعلمون أن علماء الملة يكفرونهم، لكن لم يبالوا! كفروهم لكلامهم في صفات وحقيقة وجود ربهم، الوجود الواجب على شرط الإطلاق هذا، وكفروهم لقولهم بقدم العالم، وغير ذلك، ولكنهم لم يبالوا! وبعضهم بلغ أن قال إن الفيلسوف أعظم من النبي! وأنت إذا فهمت ما مر بيانه، أدركت كيف ولماذا وقعت لهم تلك المقالة! فهم يرون كما كان يرى الفلاسفة الأقدمون أنهم يتصلون بعالم المثل أو ما في معناه (وهو ما اضطروا في كلامهم مع المسلمين لإبداله بالصانع) بملكة العقل، بلا واسطة، بينما النبي يحتاج إلى واسطة، وهي التخييل ونصب الصور والأصوات في نفوسهم، يعني الوحي! فهؤلاء علمهم أعظم وأوثق وأشمل، ومن ثم فسلطانهم أرفع على عقول البشر من سلطان النبي أو الرسول! هذا كله وهُم، مع هذا، يصدرون أنفسهم لعامة المسلمين على أنهم هم فلاسفة إلهيون، وهم أقدر الناس على التصدي للفلاسفة الدهرية الطبيعيين، الذين يقهرونهم بالبرهان والحجة، زعموا! أليسوا قد أثبتوا صانعا ما؟ إذن فقد قهروا الملاحدة الطبيعيين وتم المطلوب!

هذه الفئة يناظرها اليوم في عصرنا، تلك الفئة من المتفلسفة التي يقال لها التنويريون، كأصحاب مركز تكوين وما شاكله. فهم يريدون الرياسة على المسلمين بصناعة دين جديد يزعمونه هو الإسلام! لأنهم يكرهون أن يخضعوا لشريعة رب العالمين، على ما يجدونها عليه عند علماء الملة! فقالوا ما المخرج من ذلك؟ قالوا ننسف علوم المسلمين، بأن نسقط السنة النبوية، بالنظر إلى كون أكثر العوام لا دراية لهم بعلوم الحديث، ويسهل تنفيرهم من بعضها بإسقاط المتن، ومن ثم تسقط الثقة فيمن صححوه! وإذا سقط البخاري انسحب البساط على رجاله، وكذلك مسلم، ومن ثم يبلغ مجرم من أمثال إسلام بحيري أن يقول: البخاري جاهل! فإذا لم يبق إلا القرآن، والتراث فيما سواه كله خرف في خرف وجهل في جهل، يسهل أن يقال للناس بعدئذ، لا حاجة لكم بالعلماء ولا بكتبهم ولا بجامعة كالأزهر! القرآن ليس لأحد الحق في أن يملي على الناس كيف يفهمونه! فعليكم التخلص من كهنوت العلماء هذا، إن أردتم الانتقال بدينكم إلى آفاق التحرر والتنوير وكذا! فإن استجاب الناس لهم، صاروا هم قادة الدين في محل العلماء، يقودونهم بما يرفعهم أيضا بين

كبار الفلاسفة في زمانهم، إذ يكونوا، فيما يطمحون إليه ولا يصلون إليه أبدا، قد نجحوا أخيرا في إزالة ما لم تقدر قرون الفلاسفة على إزالته في هذه الأمة من قبل، وهي تعظيم المسلمين لعلمائهم، وخضوعهم لفتاواهم وتوجيهاتهم! ولا عجب! الفيلسوف لا يكره شيئا كما يكره مبدأ الاتباع والانقياد! لا يكره شيئا كما يكره الإجماع، إجماع علماء الملة، لأنه بطبيعته، أمر وإلزام له بالخضوع المعرفي والامتثال العملي، وهو يشتهي أن يكون رأسا متبوعا لا أن يكون تابعا! يشتهي أن يقول للناس: هذا باطل، والحق بخلافه، وأنا عندي الدليل على ذلك! لا يتفلسف الفيلسوف إلا من أجل أن يوهم الخلق بأن لديه علما رفيعا عظيما يوجب عليهم جميعا أن يتبعوه! علما يعرض أساسات الدين نفسه للزوال! فمهما استطاع أن يذيب معالم الإجماع في الأمة، سلك إلى ذلك كل طريق! لكن الفلاسفة القدماء ما كانوا يجرؤون على التطاول على مصادر تلقي الدين على الملأ هكذا، كما يسلكه هؤلاء المعاصرون، لأنهم كانوا، على زندقتهم وإلحادهم، يعيشون في بلاد يعظم فيها سلطان العلماء بين الناس، ويغلب عليهم النفور الشديد من كلام الزنادقة، فما كانوا يجرؤون على التطاول على كتاب كصحيح البخاري ولا على الاقتراب منه، ولو من بعيد، دع عنك أن يسعوا إلى إسقاط حجية السنة بكليتها من حيث هي المصدر الثاني من مصادر التشريع! ومن قرر منهم اعتقادا يُكفر العلماء أصحابَه، فكان يحرص على أن يجعل ذلك حيث لا يسمعه الأمير وشرطته وأهل الحسبة بل وحيث لا يتعرض له العامة غالبا، وإنما يجعله بين أقرانه في مدارسهم الطبية والفلكية وهذه الأشياء، وفي كتب لا تطبع ولا تنتشر ذلك النشر الواسع الذي نراه الآن. خلافا لما عليه الحال اليوم، والله المستعان! اليوم هذا المركز، مركز تكوين هذا، يجمع في القائمين عليه من يخفي إلحاده ومن يصرح به! والجهة الي تنفق عليهم، أيا ما كانت، تنفق بسخاء بالغ، على نحو لم نره من قبل، فنسأل الله تعالى أن يخيب ظنهم، وأن يجعل تدبيرهم تدميرهم!

لكن القصد أن نوع الهوى والشهوة واحد عبر التاريخ، وصراع علماء الملة مع الفلاسفة والمتفلسفة قديم قدم الدين نفسه! فلا يزال يريد أحدهم أن يسقط سلطان علماء الدين على عقول الناس بأي طريق يقدر عليها، حتى يصيرهم تبعا له، بعد أن كانوا يتبعون أهل العلم! فإن لم يكن بإخراجهم من الدين بالكلية، فعلى الأقل بإخراجهم من أن يكونوا على دين يخالف أهوائه ونظرياته التي يريد التصدر بها في

الناس! هو يحسد العلماء على هذا السلطان قطعا! وهذا فيما أزعم كان هو محرك أرسطو نفسه تاريخيا في وضعه ما ذكرنا من النظريات ومن آلة النظر! يريد أن يقول للناس: دعكم من أصحاب الكلام الخطابي من السفسطائيين وكهنة المعبد والسياسيين ومن شاكلهم، وتعالوا إلي أنا لأعلمكم كيف تفكرون وكيف تتحصلون على أنواع المعارف! ألست أنا من يعلمكم الفلك والحساب والطب وهذه العلوم النافعة؟ فتعالوا إلي إذن لأعلمكم كيف تسلمون من المغالطات، وكيف تعرفون ما يمكن معرفته فعلا بشأن الغيب وما فيه وبشأن الآلهة التي تبعدونها! سلموني رؤوسكم وصدوركم لأعلمكم كيف تكونوا بشرا!! هكذا! والإسلام، بارك الله فيكم، هو الملة الوحيدة في الأرض اليوم، التي حفظ الله فيها ذلك السلطان العلمي المعرفي لنصوص الوحيين على الناس، في طائفة ظاهرة منتشرة في البلاد، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة! ولهذا فأنتم ألد أعدائهم! طلبة العلم المستمسكون بتراث الأئمة والعلماء الأولين، المرابطون عليه، المنقطعون لدراسته ولنصب البراهين والأدلة الموصلة إليه، أصحاب الأثر والسند المتصل، الذين ينقلون فيما ورثوا، النص الشرعي وتأويله معه، وما استفاده الأولون منه، وطريقتهم في الاستنباط منه، هؤلاء هم ألد أعداء الفلاسفة في طول التاريخ وعرضه! ليس في شيء من الملل الكتابية الموروثة من يبغضونه من الطوائف كما يبغضونكم، بارك الله فيكم! لماذا؟ لأن الطالب منكم إذا استكمل الآلة العلمية، استطاع أن يثبت للناس بالأدلة الدامغة أن هؤلاء أهل أهواء فارغة، وأنهم أصحاب طبل أجوف، لا نفع تحته ولا علم ولا شيء مما يزعمون، وأنهم لا يحركهم إلا الحقد والحسد على الأكابر من ورثة مشكاة النبوة! وأنتم، بارك الله فيكم، أحرص المتشرعين والمنتسبين إلى علوم الشريعة، على ألا يحرك المسلم ساكنا إلا بأثر، كما قال السلف إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل! فكلما كان الداعي إلى الله، المتصدر لتعليم الخلق دينهم، أشد حرصا على تعبيد الناس لربهم في كل حال من أحوالهم، كان أبغض إليهم وأثقل على نفوسهم قطعا، لأنه بهذا يحرق الأرض التي يريدون الوقوف عليها حرقا!

يعني بعض الفضلاء يتساءلون لماذا لا يرمي هؤلاء بسهامهم إلى كتب النصارى أو اليهود أو غيرهم من الملل الكتابية، مع أن فيها من التناقض والباطل ما يسد عين الشمس؟ لماذا كل هذا التمويل الضخم للهجوم على مصادر الإسلام؟ والجواب واضح! لأنهم لا يجدون في تلك الملل هذه الطائفة المنيعة، الباقية بإبقاء الله لها، التي

ترث فعلا فيما ترث، فهما محكما متينا، مسندا بالسند المتصل إلى صاحب الوحي نفسه! لا توجد هذه الطائفة إلا في هذه الأمة! ومهما أفسد المتفلسفون في نصوص المسلمين وأدخلوا في تأويلها ما ليس منها، فلا تزال تلك الطائفة تقف لهم بالمرصاد، بفضل الله ومنته، تغربل سخفهم هذا غربلة، تنخله نخلا، وتظهر جهلهم وكذبهم لكل ذي عينين، تنقض عليهم أساسات الباطل الذي يقفون عليه نقضا لا مزيد عليه! أين هذا في غير هذه الأمة؟ لا يوجد! وهذا من دلائل صدق النبوة لمن عقل وتدبر، بارك الله فيكم. سفر التكوين في كتاب النصارى، مثلا، قد صارت معاملته في جملته معاملة الأمثال والمجازات محل إجماع عندهم، إجماع كاسح! لا سيما فيما يتعلق بخلق العالم وأصل الإنسان! لم يبق فيهم من يجرؤ اليوم على أن ينهض ويقول: الأيام الستة هذه حقيقة وليست مجازا، وخلق آدم وحواء في الجنة هذا حقيقة وليس مجازا! والبقية الباقية ممن يقولون ذلك منهم اليوم، ويتشبثون به، هم أقليات منبوذة اجتماعيا يقال لهم تسفيها: الخلقويون وأصحاب الأرض الشابة ونحو ذلك، هؤلاء لا يقدرون على إثبات حجية فهمهم لتلك النصوص في مقابل تأويلات مخالفيهم، على شدة تمسكهم بظواهر نصوصهم! هم يعلمون ويدركون أن المجتمع الغربي ماض إلى إسقاط حجية تلك النصوص بالكلية، وإلى الاستغناء عنها بالكلية، ويرون الإلحاد يأكل في جنبات الكنيسة كالسرطان الذي لا يمكن إيقافه! ولا يقدرون فعلا على إيقافه، على شدة تمسكهم بنصوصهم، تدري لماذا؟ لأنهم لا يتحصلون على سند متصل إلى المسيح عليه السلام لتلك النصوص نفسها، ولا إلى من تنسب إليهم من الرواة، ولا يقدرون على إثبات صحة ما توارثوه من اعتقاد أنها هي كلمة الرب ووحيه المنزل فعلا! ولا يستطيعون إثبات بطلان أي تأويل تدعيه بعض طوائفهم لتلك النصوص مما يحدثونه في كنائسهم، ولا يزالون يحدثونه بلا بينة ولا برهان! وماذا بقي بعد أن اعترف بابا الفاتيكان نفسه بصحة نظرية داروين، وبأنها لا تعارض الكتاب المقدس بوجه ما، بعد أن بقيت الكنيسة في صراع مع النظرية وأصحابها لما يربو على المئة عام؟؟ يبيت النصراني وهو يعتقد أن نصوصه حجة على الدراونة، تنص على أن الرب لم يخلقنا من سلف مشترك مع القردة والنسانيس، ثم يصبح فيجد الكنيسة تقول: لا ليس فيها حجة ولا شيء! بل هي توافق النظرية موافقة تامة ولكن نحن ما كنا نشعر بذلك! قصة آدم وحواء وخلقهما في الجنة هذه قد تبين لنا أخيرا أنها ليست حقيقة تاريخية كما كنا نعتقد! فأي ثقة تبقى لأحدهم في دينه بعد هذا؟ وأي قيمة تبقى لكتابهم عنده؟؟

أقول هذا الكلام حتى أذكركم ونفسي بعظم المنة الربانية الكبرى التي أورثنا الله إياها على أيدي علمائنا وكبرائنا، حفظهم الله وبارك لنا في علومهم! اعرفوا قدر العلماء، والسبب في بغض جميع أهل الباطل في كل مكان لهم! اعرفوا قدر تلك المنة الربانية التي يحسدكم عليها جميع أهل الملل، ولا يرى الفلاسفة والمتفلسفة في كل مكان من الأرض غرضا للهدم والإسقاط أعظم منها! ليس لله في الأرض حبل موصول إلا هذا الذي بين أيديكم! فاستمسكوا بعلومكم وتراثكم وعضوا عليه بنواجذكم ما حييتم، واصبروا على طلب العلم به وعلى التمكن من آلته مهما لقيتم في سبيله! فوالله لا يبقى للناس هداية ولا سبيل إلى ربهم إن لم تبينوه أنتم لهم، صافيا نقيا كما نزل! الفرقة الناجية المنصورة في هذه الأمة، هي أعظم منة امتن بها رب العالمين عليها بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه! فاحذروا ثم احذروا ثم احذروا من أن تزل قدم أحدكم بعد ثبوتها، فينسلخ من تلك المنة وتسلب عنه من غير أن يشعر! ووالله لا يكون الحذر من ذلك إلا بمراقبة النفس وترويضها ومعالجتها، وتنقيتها من الأهواء والميول الفاسدة، وعلى رأسها حب الرياسة والتصدر! هذا ما به يحفظ العلم في صدوركم، بارك الله فيكم، ولا ينقلب أحدكم من حيث لا يشعر، فيصبح عدوا للحق بعد أن كان عدوا لأعدائه، نسأل الله العافية!

اجتهدوا يا إخوان، كل بحسب طاقته وقدرته، في أسباب العلوم والمعارف التي بها يزداد ذاك الحصن منعة ويزداد الأكابر فيه رفعة ويزداد تعظيم المسلمين لهم! انتبهوا إلى مداخل الباطل والزندقة التي تتكالب على المسلمين في كل مكان، سلمنا الله وإياكم. نحن في زمان نحتاج فيه إلى جيش من طلاب العلم الأذكياء المؤصلين، أسوياء النفوس، القادرين على فهم ألاعيب المبطلين ونقضها عليهم من جذورها، كما عظمت منة الله تبارك وتعالى علينا به في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في عصره! فإن أعظم ما يكون من نقض الباطل أن يبين للناس أصوله الأولى ومنابعه والسبب في وقوع الناس فيه. لا يكفيني اليوم لأجل أن أدفع الناس عن الافتتان ببضاعة الفلاسفة، أن أقدم لهم فتاوى موجزة، تبين الحق الذي عليه المسلمون، من أهل السنة والجماعة، وأدلته السمعية وأقف عند هذا، مهما كنت يا طالب العلم معظما في العلم متبوعا بين الناس، فلا يكفي هذا! فإن أسباب تزيين الباطل قد شاعت وفشت في وسائل الإعلام، لا سيما التواصل الاجتماعي، على نحو لم ير التاريخ مثله! الناس الآن أصبحوا، فعلا بلا مبالغة، يتعرضون لخبر جديد أو شبهة

جديدة، أو كلام جديد لمفكر أو صحافي أو كاتب أو ما شاكل ذلك، كل عشرين أو ثلاثين ثانية، في الوقت الذي يقضونه في تصفح الفيسبوك واليوتيوب وهذه الأشياء، وهو وقت طويل، قد يجاوز الساعتين في اليوم الواحد! يكون الرجل غمرا لا يعرفه أحد، فينشر منشورا يبث فيه جهله، وإذا به يطبق الآفاق في ثوان معدودة!! وهذا يحصل كل يوم! وما من باطل إلا ويأتي مشفوعا مخلوطا بشيء من الحق، قل أو كثر، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، فيغتر الناس به لذلك الحق، ومنه يدخل عليهم! لا تظن أن المبطل صاحب الهوى سيدعو الناس إلى باطله بما يعلمون بطلانه! أبدا! بل سيدعوهم إليه بالحق الذي يعلمونه، بشيء منه، من غير أن يشعروا! واليوم عندنا في الجامعات في بلاد المسلمين تخصصات علمية كثيرة في العلوم الدنيوية، يدخل فيها باطل لا يحصيه إلى الله، وتفتح أبوابا للزندقة لا يعلمها إلا الله! لا تظن، بارك الله فيك، أن العلوم الدنيوية ليس فيها ما يصادم الاعتقاد، وأن الأمر فيها هين، والخطر كله ممن يظهرون على وسائل الإعلام وينشرون الباطل فيها، لا والله! ليس الأمر هينا أبدا! وليس الخبر كالمعاينة! من أعظم ما نعانيه مع طلبة الدراسات العليا في الكلية حيث أعمل، أنهم لا صبر لهم على القراءة والتدبر والتدقيق فيما يقرؤون، وأنهم يعجلون على إنجاز رسائلهم العلمية، فيكون أحدهم كحاطب بليل لا يدري ما يقبض بيده، ولا ينتبه إلى الأصل الفلسفي الباطل الذي تقوم عليه هذه النظرية أو تلك، والله المستعان.

قد تعجبون يا إخوة إن قلت لكم إن بعض النظريات العلمية المشهورة التي لا يظن أحد أن فيها فسادا، فيها فعلا من الفساد ما فيها، كنسبية أينشتاين! نسبية أينشتاين التي هي أساس الفيزياء العصرية، فيها فساد؟ نعم وربي فيها فساد! وهو فساد في الجانب الميتافيزيقي منها، في التعريفات الأولية، والتصورات الوجودية التي بنيت عليها معادلاتها الرياضية، فساد يجب أن يتنبه إليه الفيزيائي المسلم عند دراستها، حتى لا يقع من حيث لا يدري في تعطيل صفات رب العالمين! النسبية فيها ما يوقع في تعطيل صفات رب العالمين؟؟ ما هذا الكلام؟؟ فعلا؟؟ إي وربي فيها ذلك! ولست أنا أول من نبه عليه، بل انتبه إليه بعض فلاسفة النصارى المعاصرين الكبار، وكتب فيه كتبا، وهو ويليام لين كريغ، فيما يتعلق بمفهوم الزمان والتزامن في النسبية الخاصة! التزامن في النسبية الخاصة نسبي مطلقا، وجوديا، بمعنى أنه لا يصح أن يقال إن ثمة لحظة حاضرة مطلقة، تتزامن فيها الحوادث تزامنا موضوعيا

مطلقا، بصرف النظر عما يرصده الناس وما يشعرون به! ومع أن التزامن النسبي صحيح من جهة أنه هو ما يدركه الناس وما يستعملونه في تطبيقاتهم اليومية، إلا أن نفي التزامن المطلق الحقيقي وجوديا من أعظم الباطل، ويترتب عليه تعطيل رب العالمين عن كثير من صفاته! فمن المعيب حقا، أن يكون نقد كهذا، وهو صائب صحيح، قد سبقنا إليه فيلسوف نصراني، ثم إذا أراد المتصدرون للرد على الملاحدة في بلادنا أن ينتفعوا بشيء مما عند فلاسفة النصارى في ذلك، تركوا نقده هذا وكتبه المطولة فيه كأنه لم يكن، وأخذوا عنه استعماله برهان الحدوث الكلامي عند الغزالي في مناظراته العلنية، بعد تحديثه إياه وإدخال الكوزمولوجيا العصرية عليه، يترجمون تلك المادة وينشرونها في الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! والنسبية العامة كذلك فيها من المحاذير ما فيها، فهي تقوم على تشييء الزمان والمكان وتحويلهما من معان كلية إلى عينين وجوديتين في الخارج تؤثران في الأجسام وتتأثران بهما، وتطلق موضوعها ليشمل كل ما يحدث من أنواع الحوادث في الوجود، وهذا مفض أيضا إلى التعطيل ولا شك.

بعض الناس يظن أن من ينقد هذا الجانب من النسبيتين فهو يسقطهما بالكلية بالضرورة كما سلكه بعض النصارى من الدخلاء على تلك العلوم، ويسقط جميع التطبيقات النافعة التي استعملهما الناس فيها، وينتقدوننا في قناة إقناع من أجل ذلك، وهذا غير صحيح بحال! وقد استغرقني بيان الموقف التفصيلي من النسبيتين تسع محاضرات كاملة في شرحهما على القناة، وبيان ما يجب الانتباه إليه من مداخل مخالفة الاعتقاد فيهما، وكيف يتعامل الفيزيائي المسلم معهما ومع معادلاتهما وتطبيقاتهما وهو سالم من تلك المخالفات العقدية متنبه إليها! ولكن للأسف أجد هذه المادة الآن قد صارت كالمعلقة، لا يخدمها أحد ولا يعتني بها إلا قلة قليلة من طلبة الشريعة من دارسي الفيزياء، قلة متناثرة في أنحاء الشبكة! والمشكلة أني إذا خاطبت الفيزيائيين باللغة التي تناسبهم وبها يتعلمون تلك البضاعة في جامعاتهم، نفر طلبة العلم الشرعي ولم يصبروا، وإذا خاطبت طلبة العلم المتخصصين في العقيدة والفلسفات العصرية بلغتهم التي يفهمونها، وخففت من المصطلحات الإنكليزية لصالح إفهامهم، وأبدلت المصطلحات الفلسفية العصرية بنظائرها من مصطلحات المتكلمين التي يعهدها طلبة العلم فيما يتعرضون له من كتب التراث، وهم مستهدفون قطعا بهذه المادة كما نستهدف بها الفيزيائيين المسلمين، لم يصبر

الفيزيائيون ولم يسمعوا!! فهذه الفجوة تحتاج إلى من يسدها بارك الله فيكم، بكثير من النشر والتصنيف! نحن اليوم نحتاج إلى طلبة علم من أهل السنة، يجتمع فيهم طلب العلم الشرعي مع التوسع في علم من العلوم الدنيوية، وإتقانه أكاديميا، والصبر عليه، وعلى دراسة فلسفته فيما ينفع من كتب وأبحاث فلسفة العلم، حتى تُنصب مصفاة السنة والعقيدة الصحيحة على أيديهم في داخل أروقة تلك العلوم نفسها في الجامعات، ولا يبقى الناس في تقليد محض لأكابر الفلاسفة المصنِّفين في تلك العلوم من غير أن يشعروا بما يدخل إليهم فيها من الضلالات والزندقة، سلمنا الله وإياكم!!

أنا أقول هذا الكلام لأشحذ هممكم للعلم بارك الله فيكم، ولخوض تلك الصعاب حسبة لله تعالى، من وجد في نفسه القدرة على التصدر لهذا الثغر الخطير فلينهض به وليصطبر عليه، فإنه من أعظم الجهاد في سبيل الله، وهو ثغر عظيم واسع، يبتلع المسلمين دون أن يشعروا! إلى اليوم لا يفهم الناس لماذا يقع كثير من طلبة الفيزياء خاصة في الإلحاد والزندقة، وكلما توسعوا فيها، ازدادوا مخالفة للعقيدة واستهانة بها، لماذا؟ لأنهم يتلقون ما في كتب النظار الكبار في هذا العصر، دون أن يتحصلوا سلفا على مادة علمية تبين لهم الفرقان بين الحق والباطل في تلك العلوم! فإن كثيرا مما يسميه الأكاديميون الغربيون اليوم بالنظرية العلمية SCIENTIFIC Theory إنما حقيقته أنه فلسفة ميتافيزيقية فاسدة، قائمة على أصول الطبيعية المنهجية في الفرض الغيبي والإطلاق الوجودي! حتى نظرية داروين التي تعلم جماهير أهل السنة اليوم بطلانها وفسادها جملة، حتى هذه النظرية، لا يعرف المتصدرون للرد على الإلحاد وتحذير المسلمين منه، من أيما طائفة من أهل القبلة كانوا، كيف ينقدوها نقدا منهجيا صحيحا يأتي على أصول الباطل فيها من جذوره، والله المستعان!

القضية فلسفية بالأصل، تحتاج إلى دراسة وفهم وصبر وحسن تحرير للمذاهب والأقوال، فلا يكون الرجل من المسلمين مؤهلا للكلام فيها لمجرد أنه تخرج من كلية العلوم أو كلية الطب أو ما قاربهما، كما قد يتوهمه الأكثرون! نحن نتكلم في أصول فلسفية تقوم عليها تلك النظرية لا ينتبه إليها عامة الدارسين في تلك الكليات، وهي أصول تجد بعضها مطروحا في مباحث فلسفة العلم الأكاديمية، نعم، لكن لا تجد لها أثرا في الكتب التي تدرس في كليات العلوم عندنا! الأكاديمية الغربية العصرية تعاني للأسف، منذ القرن التاسع عشر الميلادي، من فصل موضوعي

وتخصصي صارم بين العلوم التجريبية وفلسفتها، وأعني بفلسفتها في هذا السياق تلك المباحث المعتنية بأصول تلك العلوم والمناهج العقلية المتبعة في بنائها والنظر فيها، كالعلاقة بين علم الفقه وعلم أصول الفقه عندنا، أو علم التفسير وعلم أصول التفسير، أو علم الحديث وعلم المصطلح. وهذا فصل كان أينشتاين نفسه يشكو منه ويتوجع!

فالأمر يحتاج إلى صبر وتأن وتدقيق وطول نفس، بارك الله فيكم، حتى ننهض بما يرتفع به الإثم عن الأمة بعمومها، نسأل الله التوفيق والسداد. أنبهكم إلى هذا، وأشدد في التنبيه عليه، لأني للأسف وقفت على كلام لبعض إخواننا السلفيين من تلامذة مشايخ أهل السنة، المستقيمين على الجادة، قد وقعوا في هذه الأغلاط، وبعضهم للأسف يحيل الناس إلى كتب هؤلاء الحزبيين الذين ذكرنا، فيما يتعلق بالضبط الدقيق وهذه الأشياء، وهم للأسف مقلدون في مسألة حدوث العالم وضبطه الدقيق وكذا، لما في الكتب المترجمة التي ينشرها الطبيعيون الغربيون لترويج العلوم، فيظن قارئ تلك الكتب كما يظن الكثيرون، أن حدوث العالم قد أصبح حقيقة علمية لا تقبل التشكيك، وأنها أحرجت الملاحدة، إلى غير ذلك، وهذا كله غلط، وهو من تسطيح القضية بمكان! وهو أمر ما كنت أحب أن يقع فيه الباحثون من أهل السنة الخلص، والله المستعان. فالروية الروية يا إخوان!

أحذركم ثم أحذركم، فيما أختم به حتى لا أطيل، أحذركم من العجلة على أنفسكم، سواء في العلم الشرعي أو في دراسة هذه العلوم والفلسفات الوافدة والنظريات العصرية! فإن العجلة تورث الندامة! لا يصلح أن نتعامل، نحن أهل السنة، ورثة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، مع هذه العلوم العصرية بهذا الفهم السطحي الساذج الذي نجده عند عامة المتصدرين للرد على الإلحاد في عصرنا هذا! والله لا يصلح ولا يجوز! وما صراعي على قناة إقناع مع عامة المتصدرين لمكافة الإلحاد بالكتابة والنشر والتدريس والترجمة، إلا من أجل هذا! لأنهم عجلوا على أنفسهم، وطمعوا في التصدر في هذا الباب العصري، كما تصدر فلاسفة النصارى الأمريكان، فهجموا عليه بلا أهلية! ويليام لين كريغ هذا، الذي أعجب به القوم غاية الإعجاب، وأرادوا أن يسلكوا دربه، لم يبلغ أن يكون ويليام لين كريغ، إلا بعد عشرين عاما قضاها في دراسة العلوم التجريبية دراسة مكثفة، مع دراسته علم الكلام الإسلامي واللاهوت النصراني، وأبواب الفلسفة الغربية

المعاصرة! لماذا؟ لأنه حرص على ألا يترك نفسه ضحية للتقليد الأعمى! صحيح إنه لا يزال مقلدا في أصل الفساد الفلسفي الذي تقوم عليه الطريقة اليونانية في النظر في الوجود وأحكامه، وما تفرع عليها من الطبيعية المنهجية، ومقلدا كذلك للكنيسة التي تربى على تراثها في أصول اللاهوت النصراني إجمالا، إلا أنه صبر على نفسه حتى تأهل في الطبيعيات وفلسفتها، صبرا لا نرى معشاره عند هؤلاء الذين قلدوه في مناظراته مع الملاحدة، وجلبوا إلينا بضاعة لا يفهمون نصف ما فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هؤلاء عجلوا على أنفسهم لأنهم يريدون الرياسة الفورية لأنفسهم وللأحزاب والجماعات التي ينتمون إليها، في منافستهم لأحزاب العلمانيين! فإذا كان الإلحاد خطرا عظيما، فلابد أن يرى المسلمون أننا نحن من يحجزهم عنه، ويصون لهم دينهم منه! عجلوا فوقعوا فيما وقعوا فيه، فما بالنا نرى بعض طلبة العلم من أهل السنة يتجعلون كما تعجل هؤلاء؟؟؟ والله ما يصلح هذا أبدا وما ينبغي!

كنت والله أحذر هؤلاء المتصدرين اليوم من تلك العجلة قبل سنوات طويلة، حين كنت أنشر معهم في بعض المنتديات قديما، ولا أنتبه إلى حزبيتهم وانتماءاتهم السرورية، وحين كنت أظن فيهم خيرا، فلا يسمعون! كانوا يقولون لابد أن نسارع إلى إنشاء المراكز والمحاضرة والتدريس والنشر على اليوتيوب وكذا، حتى لا يسبقنا الأشاعرة والصوفية إلى تلك الأبواب، ثم ها هم اليوم قد ندم بعض عقلائهم فعلا على تلك العجلة، بعدما رأى القوم يغرقون في ترجمة كتب يدخل بها على المسلمين من الشر ما لم يكونوا يحتسبون، ولا حول ولا قوة إلا بالله! مع أنهم ما كانوا يرون بأسا من التعاون مع الأشاعرة والصوفية في الرد على الملاحدة، إذا كان هؤلاء من الموالين الذين لا يقفون في وجه مصالحهم السياسية، لكن لابد من إحراز هذا المنبر والاستحواذ عليه فورا، حتى إذا ما ترشح بعضهم في الانتخابات السياسية، عرفهم الناس على أنهم هم من يعلمونهم كيف يسلمون من الإلحاد والعلمانية وهذه الأمور، فإلى الله المشتكى، وما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل. عجلوا على أنفسهم في فهم تلك البضاعة الوافدة والنظريات الغربية العصرية، وعجلوا على أنفسهم كذلك في فهم تراث شيخ الإسلام رحمه الله في الرد على أهل الكلام والفلاسفة، فصرنا نرى من العداون على الشيخ وعلى تراثه ما يندى له الجبين، باسم السلفية والفهم السلفي والتعامل السلفي مع العقليات والفلسفة العصرية، والله المستعان.

ففي الختام، أوصيكم ونفسي بطول النفس في طلب العلم، وبالصبر على النبتة حتى تصبح شجرة راسخة الأصول، وارفة الظلال، يستظل بها المسلمون ولا يجدون فيها إلا خيرا، وأوصيكم ثم أوصيكم بلزوم مجالس العلماء وطلبتهم، وبألا تقدموا بين أيديهم، فإنهم بفضل الله تعالى هم أمنة أهل الأرض في عصرنا هذا، كما كان سلفهم لسلفنا، نسأل الله التسديد والثبات حتى الممات، والحمد لله أولا وآخرا.

أبو الفداء حسام بن مسعود

غفر الله له